تراثنا

نشرة فصلية تصدرها

مؤسسة آل البيت عليهم السلام لاحياء التراث

العدد الاول (١٤) - السنة الرابعة / محرم ١٤٠٩هـ.

تراثنا

نشرة فصلية تصدرها مؤسسة آل البيت ـ عليهم السلام ـ لإحياء التراث

■ الإسهام في النشرة باب مفتوح لجميع العلماء والمحقّقين والمهتمّين بشؤون تراث أهل البيت عليهم السلام.

■ الآراء المنشورة لا تعبّر عن رأي النشرة بالضرورة.

■ ترتيب المواضيع يخضع لاعتبارات فنّية، وليس لأيّ اعتبار آخر.

■ النشرة غير ملزمة بنشر كل ما يصل إليها.

المراسلات :

تعنون باسم: **هيئة التحرير**

بيروت ـ بئرالعبد ـ مقابل البنك اللبناني / الفرنسي

ص. ب ٢٤/٣٤ ـ تلكس ٤٠٥١٢ ـ ت: ٨٢٠٨٤٣

تراثنا

العدد الأول [١٤]/ السنة الرابعة/ محرّم- صفر- ربيع الأول ١٤٠٩ هـ . ق.

الإعداد والنشر: مؤسسة آل البيت ـ عليهم السلام ـ لإحياء التراث.

الكمّية: ١٠٠٠ نسخة.

قيمة الإشتراك السنوي في نشرة تراثنا ١٥ دولاراً داخل لبنان ، و٢٥ دولاراً في البلاد العربية وأوروبا وآسيا وأفريقيا والأمريكيتين واستراليا . بضمنها أجور البريد المضمون .

كتاب الليل والنهار
لابن فارس

حامد الخفّاف

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

المفاخرات: لون جميل من ألوان الأدب العربي، له ضوابطه المعيّنة كأُسلوب خصوصياته التي ميّزته عن الأساليب المعروفة في النثر الأدبي ، حيث يتّخذ شكل مناظرة تتمُّ بين طرفين مجازيين أو أكثر يقوم بتحريرها المؤلف، وتكون المفاخرة - عادةً - مليئة بجدّ القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، ومرصّعة باللطائف الأدبية والأحاجي النحوية، والأبيات الشعرية، والفتاوى اللغوية.

منها على سبيل المثال: مفاخرة السيف والرمح لعلاء الدين علي بن محمد السعدي (٧١٧ هـ)، ومفاخرة السيف والقلم لأبي حفص أحمد بن محمد بن أحمد الكاتب الاندلسي (كان حيّاً بعد سنة ٤٤٠ هـ)، ومفاخرة البكرية والعمرية لأبي يحيى الجرجاني (من أجلّ أصحاب الحديث)، والمفاخرة بين الراحة والتعب، والمفاخرة بين العلم والمال، والمفاخرة بين الفقر والغنى، وكلّها للسيد محسن الأمين العاملي.

وكتاب ابن فارس هو مفاخرة بين الليل والنهار، ألّفه ـ كما يقول ـ لفتى من أهل الجبل سأله أن يُثْبِت له «وريقات في ذكر الليل والنهار وما يصلح أن يفضل به أحدهما على الآخر ويسوى» فارتجل كتابه المذكور مُسعفاً له به.

فيبدأ أول ما يبدأ بذكر قول صاحب الليل الذي سرد مجموعة من الآيات الكريمة التي قدّمت الليل على النهار، فأجابه صاحب النهار بأنْ لا فضيلة للتقديم مستدلاً بالقرآن الكريم أيضاً، وأرى أن تقديم المؤلف للقرآن الكريم لم يأت عن غير قصد، وإنّما كانت لفتة جميلة حَفظ بها قداسة الذكر الحكيم، ثم انتقل الطرفان في المناظرة إلى الأدب العربي شعراً ونثراً، يتخلّل ذلك أحاديث نبويّة شريفة، وأمثال سائرة، وطُرف تاريخية.

والكتاب على صغره أثر نفيس لواحد من كبار أعلام الأدب العربي في القرن الرابع الهجري، وهو بَعْدُ لوحة أدبية زاهية الألوان، أضف إلى ذلك أنّ قيمته التاريخية لا تقلّ عن قيمته الأدبية، بما يسلّط من أضواء جديدة على شخصية ابن فارس.

* * *

ترجمة المؤلف

الإمام العلّامة، اللغوي المحدّث، أبوالحسين أحمدبن فارس بن زكريا بن محمدبن حبيب القزويني، المعروف بالرازي(٥)، نزيل همدان، صاحب كتاب «المُجمل».

نشأته:

ولد المترجم له على الأرجح في العقد الأول من القرن الرابع الهجري، وكان مسقط رأسه في قرية (كرسف وجياناباذ)، التي ذكرها ابن فارس لمن سأله عن وطنه، وتمثّل قائلاً:

بلادٌ بها شُدَّت عَلَيَّ تمائمي ... وأول أرض مَسَّ جلدي تُرابها

ويظهر أنّها كانت بالقرب من مدينة قزوين، ولذا نُسب إليها.

وإذا أردنا أن نتطرّق إلى نشأة ابن فارس فيمكن القطع أنّها لم تكن بعيدة عن الأجواء العلمية، فقد كان والده فارس بن زكريّا من رجال العلم والمعرفة وكان فقيهاً ولغوياً، فأخذ عنه ما تيسّر من العلوم والمعارف، إلّا أنّ طموح

---

(٥) توجد ترجمته في: يتيمة الدهر ٣: ٣٩٧، فهرست الشيخ الطوسي: ٩٩/٣٦، معالم العلماء: ٩٩/٢١، معجم الأُدباء ٤: ٨٠، التدوين في أخبار قزوين ٢: ٢١٥، الكامل في التاريخ ٨: ٧١١، إنباه الرواة ١: ١٢٧، وفيات الأعيان ١: ٤٩/١١٨، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: ٤٣/٦٥، رجال ابن داود: ١١٠/٤٢، البداية والنهاية ١١: ٣٣٥، مرآة الجنان ٢: ٤٤٢، بغية الوعاة ١: ٦٨٠/٣٥٢، طبقات المفسّرين ١: ٥٤/٦، شذرات الذهب ٣: ١٣٢، أعيان الشيعة ٣: ٦٠، روضات الجنّات ١: ٦٧/٢٣٢، وعن سير أعلام النبلاء ١٧: ٦٥/١٠٣، دمية القصر ١٤٧٩/٣، ترتيب المدارك ٦١٠/٤، نزهة الألبّاء: ٣٢٠، المنتظم ١٠٣/٧، وفيات سنة ٣٦٩، المختصر في أخبار البشر ١٤٢/٢، تأريخ الإسلام ٩٧/٤، تلخيص ابن مكتوم- ورقة: ١٥ و ١٦، عيون التواريخ ١٢/ لوحة ٢٥٨، الوافي بالوفيات: ٢٧٨/٧، الديباج المذهب: ١٦٣/١، الفلاكة والمفلوكون: ١٠٨-١١٠، طبقات ابن قاضي شهبة ٢٣٠/١، النجوم الزاهرة: ٢١٢/٤، مفتاح السعادة ٩٦/١، سلم الوصول: ١١٢.

ابن فارس لم يكن يقف عند حدّ، وهمّته العالية أكبر من أن تقنع بالقليل وترضى باليسير فرحل إلى أصبهان وزنجان وميانج طلباً للعلم، فتتلمذ على كبار علمائها أمثال أبي القاسم سليمان الطبراني، وأبي بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثَعْلَب، وأحمد بن طاهر بن النجم، ولم يكتف بذلك حتى رحل إلى بغداد للاستفادة من عالمها الكبير في ذلك الوقت محمد بن عبدالله الدوري.

من هنا كان ابن فارس جم المعارف، غزير العلم، صقلت الأسفار الطويلة شخصيته العلمية حتى غدا إماماً في اللغة، مبرّزاً في علوم القرآن والحديث، فذاع صيته في كلّ مكان، عالماً تُشدُّ إليه الرحال، طلباً لمعارفه، وتعطّشاً للاستزادة منه.

مكانته العلمية:

ليس من السهل في هذه العجالة أن نتحدّث عن مكانة ابن فارس العلمية، تلك الشخصيّة البارزة التي قدّمت للتراث الإسلامي نتاجاً متميّزاً في المكتبة العربية، فمن خلال مصنفاته وآثاره ترى اللغوي الأديب الذي تطرب النفوس لكلامه، وترقص القلوب لبيانه، فهو كما قيل: «إذا ذكرت اللغة فهو صاحب مُجْمَلِهَا، لا بل صاحبها المُجْمِلُ [لها]»[(١)].

وترى المفسّر والمحدّث الذي تبحّر في علوم القرآن والحديث، فأجاد وأفاد.

وتُشاهد المتكلّم الفقيه الذي «إذا وجد فقيهاً أو متكلّماً أو نحوياً كان يأمر أصحابه بسؤالهم إيّاه، ويناظره في مسائل من جنس العلم الذي يتعاطاه، فإن وجده بارعاً جدلاً جرّه في المجادلة إلى اللغة، فيغلبه بها»[(٢)] فهو بذلك كان «من أعيان العلم وأفراد الدهر، وهو بالجبل كابن لنكك بالعراق، يجمع إتقان العلماء

---

(١) إنباه الرواة ١: ١٢٨ عن أبي الحسن الباخرزي.

(٢) إنباه الرواة ١: ١٢٩.

وظرف الكتاب والشعراء»[٣] وكان «في وقته محتجّاً به في جميع الجهات غير منازع، منجباً في التعليم»[٤].

وهكذا أثنى عليه العلماء، وأطروه بعبارات الثناء والتبجيل، تمجيداً لمقامه السامي، وتقديراً لجهوده العظيمة في شتى فنون المعرفة.

وفاته:

اختلفت المصادر في تحديد سنة وفاته اختلافاً كبيراً، إلّا أنّ الراجح منها أنّه توفّي في سنة ٣٩٥ هـ بالرّي، ودفن مقابل مشهد القاضي عبدالعزيز الجرجاني.

كتاب الليل والنهار:

عندما طلب منّي إخواني الأعزاء في هيئة تحرير نشرة «تراثنا» الموقّرة تحقيق بعض الرسائل والكتب الصغيرة، ذات الأهمّية التراثية، لم تكن بحوزتي عناوين محدّدة لمخطوطات يمكن التحرّك عليها، فاستعنتُ بسماحة العلّامة المحقّق السيد عبدالعزيز الطباطبائي، الذي شملني برعايته الأبوية، كما هو شأنه دائماً، وعَرَضَ عليَّ ما يزيد على العشرين كتاباً ورسالة (مصوّرات، ومستنسخات) كي أنتقي منها ما أشاء، فَلَفَت انتباهي كتاب الليل والنهار لابن فارس، فاخترته من بينها، فأشار عليَّ بحسن الاختيار ودقّة الانتقاء.

تصفّحته وقرأته فإذا أنا بلوحة أدبية رائعة، تنشرح لها النفوس، وتطرب لها الأفئدة، جمعت بين قداسة الآية الكريمة والحديث الشريف، وظرافة الشعر العربي، وعبرة المثل السائر، وجمال لغة القرآن.

---

(٣) نفس المصدر ١: ١٢٧.

(٤) نفس المصدر ١: ١٢٩.

كتاب الليل والنهار: ذكره أغلب من ترجم لابن فارس ضمن مصنّفاته، ولم يعثر الباحثون على أيّة نسخة منه، سوى ما نقله زهير عبدالمحسن سلطان ـ في مقدّمته لكتاب «مجمل اللغة» ـ عن بروكلمان في «تأريخ الأدب العربي» أنّه ذكر وجود نسخة مخطوطة من الكتاب في ليبزج ٧٨٠ رقم ٤، بعنوان «قصص النهار وسمر الليل»[٥] ولست أدري هل أنّ النسخة المذكورة هي بعينها «كتاب الليل والنهار» أم لا؟ وإذا كان كذلك فما هو السبب في تغيير اسم الكتاب المثبّت في أغلب المصادر القديمة؟!.

النسخة المعتمدة:

هي النسخة الموجودة بحوزة السيّد الطباطبائي، حيث قام باستنساخها على النسخة المحفوظة في مكتبة ملك في طهران، الكتاب الرابع من المجموعة المرقمة (٨٥٢)، وتقع في ١٢٦ ورقة، يحتلّ كتابنا الأوراق من ١٢١ إلى ١٢٦، فرغ من كتابته بخطّ النسخ علي بن علي بن إبراهيم الطوخي المالكي في يوم الأحد المصادف ١٢ ذي الحجّة سنة ٩٩٦ هـ.

والكتب الأُخرى في المجموعة حسب الترتيب الآتي:

١ـ المكافاة على الحسن والقبح: تأليف أبي جعفر أحمد بن يوسف ابن إبراهيم بن دايه المصري الكاتب (٣٤٠ هـ)، من الورقة ٢ إلى الورقة ٤٧.

٢ـ بلوغ الآداب في لطائف العتاب: تأليف محمد بن أحمد المقري، من الورقة ٤٩ إلى الورقة ١١٤.

٣ـ حكمة الإسراء ومفاخرة الأرض والسماء: لم يُذكر مؤلفه، من الورقة ١١٥ إلى الورقة ١١٨.

* * *

(٥) مجمل اللغة ١: ٢٧.

منهج التحقيق:

اعتمدت في تحقيقي للكتاب على النسخة الوحيدة التي وقعت في يدي والتي مرّ وصفها، فحاولت ما استطعت تقويم نصّ الكتاب وضبط عباراته وفق ما توفّر لديّ من مصادر، فقمت بتخريج الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وعلّقتُ على الأمثال السائرة بما يناسب المقام، وشرحت الألفاظ الصعبة والمغلقة، بما ييسّر فهم العبارة، مستنداً في ذلك إلى كتب اللغة والأدب، وذكرتُ لجملة من الأعلام ترجمة مختصرة، انتزعتها من كتب التراجم والرجال، ذيّلت كلّ ذلك في هامش الكتاب.

وختاماً أرجو أن أكون قد وفّقت لإخراج هذا الكتاب بصورة مناسبة، وأكون بذلك قد قدّمت للقارئ الكريم أثراً نفيساً من ذخائر تراثنا الغني بكل ما هو طيّب وجميل، بما ينال رضاه، ولله الحمد أولاً وآخراً.

حامد الخفّاف

٣ صفر ١٤٠٩ هـ

* * *

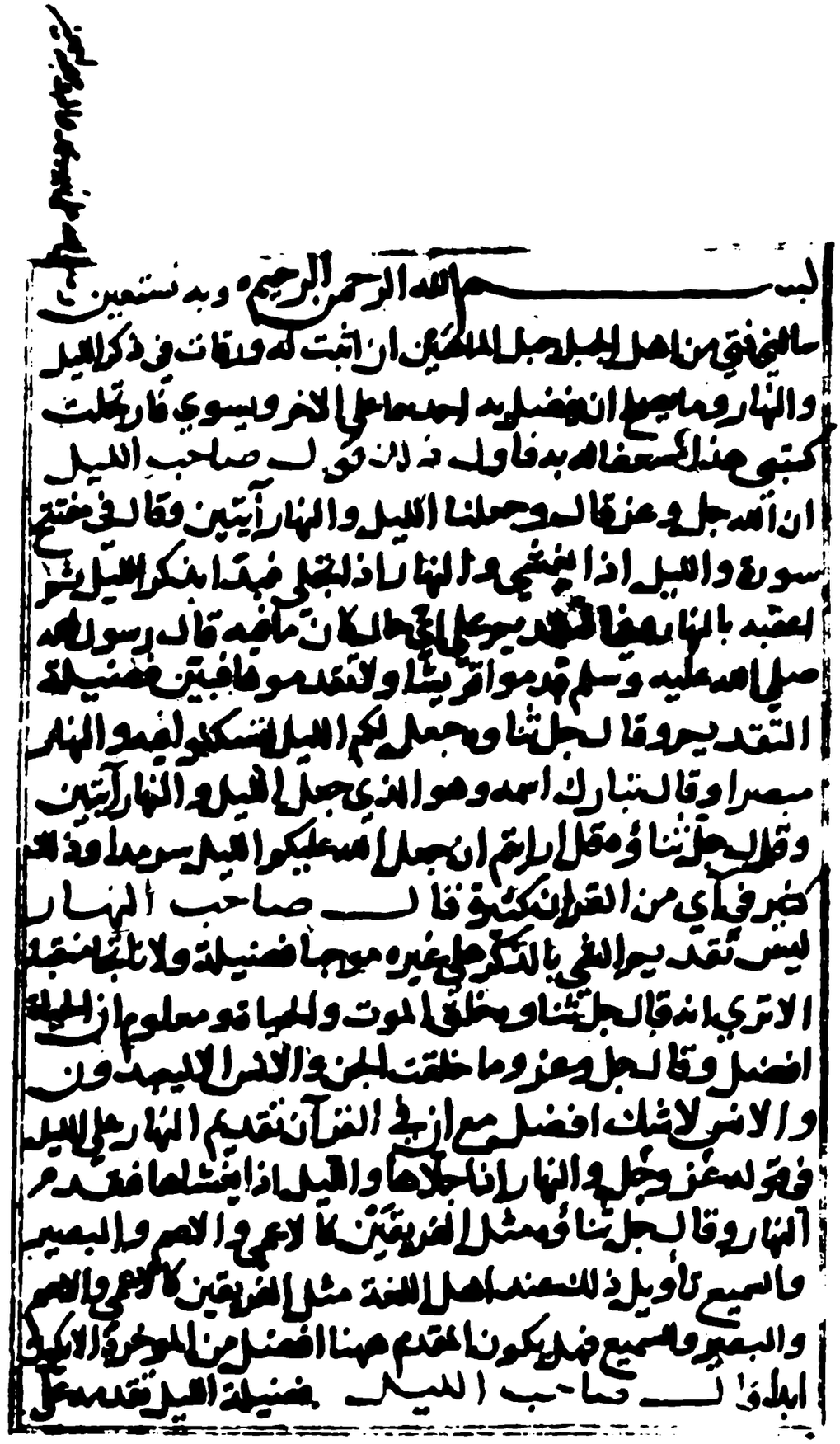

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
سألني بعض من اهل البلد جعل الله عليّ ان اثبت له وقفات في ذكر الليل
والنهار وما يصح ان يفضل به احدهما على الاخر ويسوي فاربحلت
كتبي عند استعفاده به فاول ذلك ان قول صاحب الليل
ان الله جل وعز قال وجعلنا الليل والنهار آيتين وقال في مفتتح
سورة والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى فبدا بذكر الليل ثم
عقبه بالنهار فما تقدير على اي حال كان ماضيه قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم قدموا قريشا ولا تقدموها فبين فضيلة
التقدير وقال جل ثناؤه وجعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار
مبصرا وقال تبارك اسمه وهو الذي جعل الليل والنهار آيتين
وقال جل ثناؤه قل ارايتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا فذكر
الليل في اي من القرآن كثير قال صاحب النهار
ليس تقدير التي بالتذكر على غيره موجبا فضيلة ولا تاخيره
الا ترى ان الله جل ثناؤه خلق الموت والحياة ومعلوم ان الحياة
افضل وقال جل وعز وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون
والانس لا شك افضل مع ان في القرآن تقديم النهار على الليل
في قوله عز وجل والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها فقدم
النهار وقال جل ثناؤه ومثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير
والسميع تاويل ذلك عند اهل اللغة مثل الفريقين كالاعمى والاصم
والبصير والسميع فقد يكون المتقدم ههنا افضل من المؤخر الا ترى
ابدا قال صاحب الليل فضيلة الليل تقدمه على

النهار

تقديم الشيء بالذكر لا يدل على فضيلته ما يوجب فضيلته

● صورة الورقة الأولى من مخطوطة كتاب «الليل والنهار» المحفوظة في مكتبة ملك ـ طهران.

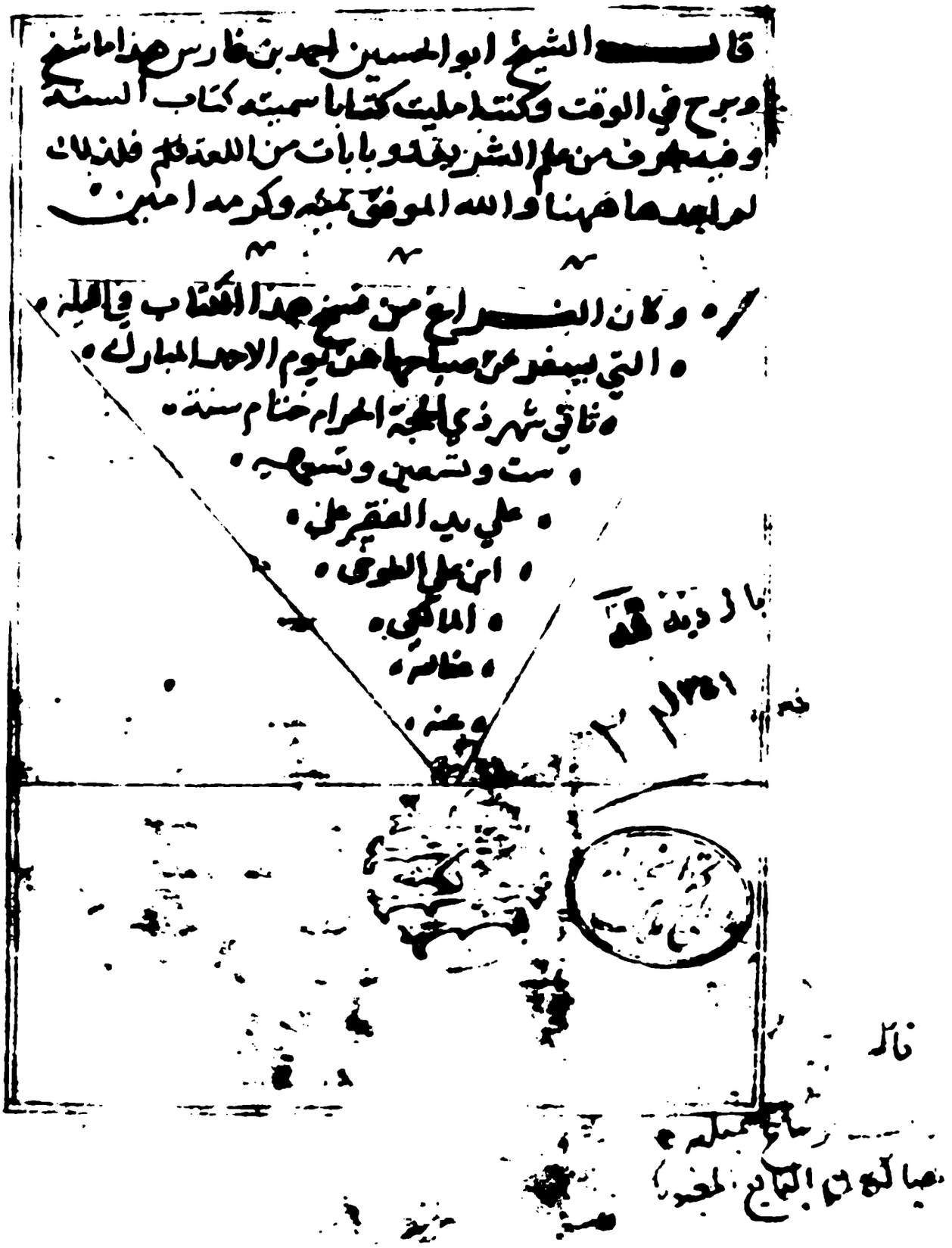

● صورة الورقة الأخيرة من مخطوطة كتاب «الليل والنهار» المحفوظة في مكتبة ملك ـ طهران.

كتاب «الليل والنهار» لابن فارس

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وصلّى الله على نبيه محمد وآله وصحبه أجمعين.

سألني فتى من أهل الجبل -جبل الماهَيْن- أنْ أُثْبت له ورقات في ذِكْرِ الليلِ والنهار، وما يصلح أنْ يفضل به أحدهما على الآخر ويسوّى، فارتجلت كُتَيّبي هذا مسعفاً له به.

فأوّلُ ذلك قول صاحب الليل:

إنّ الله جلّ وعزّ قال: (وَ جَعَلْنَا ٱللَّيلَ والنَّهَارَ آيَتَيْنِ)[١] وقال في مفتتح سورة [الليل]:(وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشى * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلّى)[٢] فبدأ بذكْر الليل ثمَّ أعقبه بالنهار، وفي التقديم على أيّ حال كان ما فيه، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:«قَدِّموا قريشاً ولا تَقَدَّموها»[٣]. فبيَّنَ فضيلة التقديم، وقال جلّ ثناؤه: (جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً)[٤]، وقال تبارك اسمه: (وَ هُوَ ٱلَّذي جَعَلَ ٱللَّيْلَ والنَّهارَ آيتين)[٥]، وقال جلّ ثناؤه: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللهُ عَلَيْكُمُ ٱللَّيْلَ سَرْمَداً)[٦].

وذلك كثير في أيٍ من القرآن كثيرة.

---

(١) الإسراء ١٧: ١٢.

(٢) الليل ٩٢: ١ و ٢.

(٣) أخرجه المتّقي الهندي في كنزالعمّال ١٢: ٢٢، من ثلاث طرق.

(٤) يونس ١٠: ٦٧.

(٥) كذا.

(٦) القصص ٢٨: ٧١.

قال صاحب النهار:

ليس تقديم الشيء بالذِكْرِ على غيره موجباً فضيلة، ولا ناتجاً منقبةً، ألا ترى أنّه قال جلّ ثناؤه: (خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ)[٧] ومعلوم أنّ الحياة أفضل، وقال جلّ وعزّ: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[٨] والإنس لا شكّ أفضل.

مع أنَّ في القرآن تقديم النهار على الليل في قوله جلّ وعزّ:(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)[٩] فقدّم النهار. وقال جلّ ثناؤه:(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ)[١٠]. تأويل ذلك عند أهل اللغة: مَثَل الفريقين كالأعمى والبَصير والأصمّ والسميع، فهل يكون المقدّم هاهنا أفضل من المؤخر، ذا لا يكون أبداً.

قال صاحب الليل:

فضيلة الليل تقدّمه على النهار وسبقه إليه، قال الله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا)[١١] فلا مَرية في أنَّ المرتتقين مظلمان، فإذا فتق أحدث معنى آخر، فالظُلمة إذاً قَبْلَ النور في الإنشاء والخِلْقَة، وإذا كان كذا فالليل قبل النهار.

قال صاحب النهار منشداً متمثّلاً:

إذا سَلَكَتْ حَوران من رملِ عالجٍ فقولا لها: ليس الطريق كذلكِ

---

(٧) الملك ٦٧: ٢.

(٨) الذاريات ٥١: ٥٦.

(٩) الشمس ٩١: ٣ و ٤.

(١٠) هود ١١: ٢٤.

(١١) الأنبياء ٢١: ٣٠.

ولعمري ما الأمر على ما ظَنَنْتَهُ بل النور قبل الظلمة، قال الله تعالى ذكره: (اللهُ نُورُ ٱلسَّمٰواتِ وَالأَرْضِ)[١٢].

تأويل ذلك أنّه جلّ ثناؤه هو الذي أضاء هما بنورٍ استنارا به، فأغفلتَ أنتَ هذا، واعتبرت العالم الذي نحن ساكنوه، وقد قال جلّ وعزّ: (هُوَ ٱلَّذي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً)[١٣].

فبالنيّرين أضاءَ ما كانَ مرتتقاً، ثمّ فتق بالضياء قبل الظلام، والنهار مضيء، فاعْلَم ذلك.

قال صاحب الليل:

معلوم أنَّ الزمان حركات الفَلَكِ في دورانه، وهو أعوام وشهور وأسابيع، ومتى ولد الشهر فإنّما يذكر من أول ليلة لأول يوم منه، فلو كان النهار أفضل كان افتتاح الشهر به لا بل مفتتحه الليلة الأُولى منه.

قال صاحب النهار:

هذا عليك لا لك، وذلك أنّ خَلْقاً يكثر عددهم يجعلون مفتتح الشهر أول يوم منه، وإنّما العرب عدّت الشهر من أول ليلة، لأنّ الهلال فيها يَهلّ، والله عزّ وجلّ يقول: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ)[١٤] فجعلَ جلَّ ثناؤه مواقيتَ الحجّ ومواقيت سائر ما بالناس إليه حاجة من اقتضاء الديون وانقضاء عدد المعتدّات وغير ذلك من أنواع العبادات في إهلال الهلال.

هذا والشهر عند العرب إنّما هو الهلال، ثمّ سمي به كلّ ثلاثين يوماً شهراً، وذا شيء اتّفقت فيه العرب والعجم، لأنّ «الماه» عند العجم هو القمر، ثمّ

---

(١٢) النور ٢٤: ٣٥.

(١٣) يونس ١٠: ٥.

(١٤) البقرة ٢: ١٨٩.

سمّوا ثلاثين يوماً «ماه»، والحُجّة لما قلناه قول ذي الرمّة[١٥]:

فأصْبَحَ أجْلَى الطرف ما يستزيده يرى الشهرَ قبل الناس وهو بخيل

وقال كُثَيِّر[١٦]:

تراءوا على مَاوية الفجرِ غدوةً وقد مَحَقَ الشهرَ المبيّنَ مَاحِقُ

والهلال إذَنْ هو المقدّم والهلال نور، وذلك دليل على أنّ النور قبل الظُلمة.

وبعد، فإنّا رأينا ذوي الإحساس وأكثر الناس، يجزعان من الليل، لا بل يلومونه ويذمّونه ويكرهونه ويتشكون طوله، قال امرؤ القيس[١٧]:

---

(١٥) غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، من مضر، ابوالحارث، ذو الرمّة: شاعر، من فحول الطبقة الثانية في عصره، ولد في سنة ٧٧ هـ، وكان شديد القصر، دميماً، يضرب لونه إلى السواد، أكثر شعره تشبيب وبكاء وأطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين وكان مقيماً بالبادية، يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيراً، قال أبوعمربن العلاء: فُتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمّة، له ديوان شعر مطبوع في مجلّد ضخم، توفّي بأصبهان وقيل: بالبادية سنة ١١٧ هـ.

«وفيات الأعيان ٤: ٥٢٣/١١، الأغاني ١٨: ٣، خزانة الأدب ١: ٥٠، الأعلام ٥: ١٢٤».

(١٦) كُثَيِّربن عبدالرحمن بن الأسودبن عامر الخزاعي، أبوصخر، شاعر متيّم مشهور، من أهل المدينة، يقال له: «ابن أبي جمعة» و «كثيِّر عزّة» و «الملحي» نسبة إلى بني مليح وهم قبيلته، وكان مفرط القصر دميماً، ويذهب المؤرّخون إلى أنّه كان شيعياً، وروي أنّه دخل على عبدالملك بن مروان فسأله عن شيء فأخبره به، فقال: وحقّ علي بن أبي طالب أنّه كما ذكرتَ؟ قال كثيِّر: يا أميرالمؤمنين لو سألتني بحقّك لصدقتك، قال: لا أسألك إلّا بحقّ أبي تراب، فحلف له به فرضي.

قال المرزباني: كان شاعر أهل الحجاز في الإسلام لا يقدّمون عليه أحداً.

وأخباره مع عزّة بن جميل الضمرية كثيرة، وكان عفيفاً في حبّه لها.

توفّي بالمدينة سنة ١٠٥ هـ، وقيل ١٠٧ هـ.

«الأغاني ٩: ٣، وفيات الاعيان ٤: ٥٤٦/١٠٦، سير أعلام النبلاء ٥: ٥٤/١٥٢، عيون الأخبار ٢: ١٤٤، العبر في خبر من غبر ١: ١٠١، العقد الفريد ٢: ٢٤٦، شذرات الذهب ١: ١٣١، الأعلام ٥: ٢١٩».

(١٧) امرؤ القيس بن حجربن الحارث الكندي، من بني آكل المُرار، أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يماني الأصل، مولده بنجد، أو بمخلاف السكاسك باليمن، اشتهر بلقبه، واختلف المؤرّخون في اسمه، فقيل: حُنْدُج، وقيل: مليكة، وقيل: عدي، وهو من أصحاب المعلّقات السبع، والأبيات المذكورة في المتن قطعة من معلّقته التي مطلعها:

←

ولـيـلٍ كـمـوجِ الـبـحـرِ أرخـى سُدُولَهُ عَلَيَّ بـأنـواعِ الهـمـومِ لـيَـبْـتَـلي
فـقـلـتُ لـهُ لَـمَّـا تَـمَـطّـى بصُلْـبِـهِ وَأردَفَ أعْـجَـازاً وَنـاءَ بـكَـلْـكَـلِ
ألا أيّـهـا الـلـيـلُ الطـويـلُ ألا انْـجَـلِ بصبـحٍ وما الإصْبَاحُ مِنْـكَ بأمثلِ

وقال:

على أنّ للعينين في الصبح راحة بطـرحـهما طـرفيهما كـلّ مطـرح

فانظر الآن في تكرّهه الليل وتروّحه بالصبح، فأين المشتكي من المترجّي! ولولا اشتهار ما قاله الشعراء كتبناه.

قال صاحب الليل:

إنّما هذه الأشعار على اختلاف أحوال القائلين، فكم مُتمنٍ ليلاً كتمني غيره نهاراً، وكم ذي كربة من غريم يباكره، أو عَدوّ يماكره، أو ضدٍّ لابُدّ له من أنْ يراه مع الذي في رؤية الضدِّ من الكربِ والكآبةِ، وأهلُ بغداد يقولون: الكتاف بالقِدّ[١٨] ولا الجلوس مع الضدّ.

وكم من جيشين يتقابلان ويتقاتلان سحابةَ يوم حتى إذا جاء الليل، وأقبلت مقاصير[١٩] الظلام تكافّا وتحاجزا، أمَا في ذلك راحة للفريقين؟ قل: بلى.

وقال خِدَاش بن زُهَيْر[٢٠]:

← قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكرى حَبيبٍ وَمنْزِلِ بِسقْطِ اللِّوى بَيْنَ الدخولِ فَحَوْمَلِ

ويعرف امرؤ القيس بالملك الضليل، لاضطراب أمره طول حياته؛ وذي القروح، لما أصابه من قروح ظهرت في جسده، وهو في أنقرة حيث أودت بحياته هناك حوالي سنة ٨٠ قبل الهجرة.

«الأغاني ٩: ٧٧، خزانة الأدب ١: ١٦٠، الأعلام ٢: ١١».

(١٨) القِدُّ: سيورٌ تُقَدُّ من جلد فطير غير مدبوغ فتشدّ بها الأقتاب والمحامل «لسان العرب ـ قدد ـ ٣: ٣٤٤».

(١٩) قَصْرُ الظلام: اختلاطه، وكذلك المَقْصَرَةُ، والجمع: المقاصر، عن أبي عبيد. وقد قَصَرَ العَشِيُّ يقصر قصوراً، إذا أمسيت، ويقال: أتيته قَصْراً، أي عشيّاً «الصحاح ـ قصر ـ ٢: ٧٩٢».

(٢٠) خِداش بن زهير العامري، من بني عامر بن صعصعة، شاعر جاهلي، من أشراف بني عامر وشجعانهم، ←

يـا شَـدَّةً مـا شَـدَدْنَـا غَـيْـرَ كَـاذِبَـةٍ على سَخِيـنَـةَ[٢١] لولا الليلُ والحرمُ[٢٢]

ويروى: جدّ صادقة.

فاعلم أنّ الليل حَجَزَ بينهم.

وقال بعض أهل هذا العصر فيما يعانيه من غرمائه:

عَـجِبْـتُ لـنـاس لا غـريم بـبـابهـم يـقـولـون أصْـبـح لـيـل والـلـيل أروحُ

فـهـلْ يَـتَـمنّـى الصبح ذو عسرةٍ يرى غـريـمـاً يـوافي بـابـه حين يُـصْـبِـحُ

فالليل متمنّى قوم، والنهار متمنّى آخرين.

وأنشدني أحمدبن الحسين[٢٣]، قال: أنشدني الخبزرزي[٢٤]:

كان يلقّب «فارس الضحياء» يغلب على شعره الفخر والحماسة. يقال: إنّ قريشاً قتلت أباه في حرب الفجار، فكان خداش يكثر من هجوها، وقيل: أدرك حنيناً وشهدها مع المشركين، ونقل عن بعض المؤرّخين أنّه أسلم بعد ذلك.

«الإصابة في تمييز الصحابة ١: ٢٣٢٧/٤٦١، الأعلام ٢: ٣٠٢».

(٢١) السَخِينة: هي طعام يتّخذ من دقيق وسمن، وقيل: دقيق وتمر، أغلظ من الحساء وأرقّ من العصيدة، وكانت قريش تكثر من أكلها فعُيّرت بها حتى سُمُّوا سَخِينَة.

ومنه قول كعب بن مالك:

زعمتْ سخينةُ أنْ ستغلبَ ربَّها ولـيـغـلـبـنَّ مُـغـالِـبُ الـغَـلّابِ

«لسان العرب ـ سخن ـ ١٣: ٢٠٦».

(٢٢) قال ابن حجر العسقلاني في ترجمة خداش: شهد حنيناً مع المشركين وله في ذلك شعر يقول فيه:

يـا شـدّة مـا شـددنـا غير كـاذبـة على سـخـيـنـة لولا الـلـيـل والحرمُ

ثمّ قال: وذكر المرزباني... أنّ البيت الذي قاله في قريش كان في حرب الفجار، وهذا أصوب. «الإصابة ١: ٤٦٢».

(٢٣) الظاهر هو أبوبكر أحمدبن الحسن الخطيب راوية ثعلب، وقد تلمّذ عليه ابن فارس في زنجان، أُنظر: «معجم الأُدباء ٤: ٨٢، إنباه الرواة ١: ١٣٠».

(٢٤) كذا في الأصل، والظاهر أنّه تصحيف «الخبزرزي» وهو نصربن أحمد بن نصربن مأمون البصري، أبوالقاسم الخُبْزَأُرْزِي الشاعر المشهور، ويعرف بـ«الخبزرزي» أيضاً، كان أُمّياً لا يتهجّى ولا يكتب، وكان يخبز خبز الأُرز بمربد البصرة في دكّان، وينشد أشعاره في الغزل، والناس يزدحمون عليه ويتعجّبون من حاله، وكان ابن لنكك الشاعر البصري المشهور ينتاب دكانه ليسمع شعره، واعتنى به وجمع له ديواناً، وانتقل نصر إلى بغداد فسكنها مدّة وقرئ عليه ديوانه، واختلفت المصادر في تحديد سنة وفاته فقيل سنة ٣١٧ هـ، وقيل ٣٢٧ هـ، وقيل: ٣٣٠ هـ.

يا ليل دمْ[لي] لا أُريد صباحا حسبي بوجهِ معانقي مصباحا
حَسْبي به قمراً وحَسْبي ريقه خمراً وحسبي خدّه تفاحا

وأنشدني غيره:

أقول وثوب الدجى ملْبَدُ وللّيل في كلّ فجّ يدُ
ونحن ضجيعان في مجسد فللّه ما ضمن المجسدُ
أيا غد إنْ كنتَ بي مشمتاً فلا تدنُ من ليلتي يا غدُ
ويا ليلة الوصل لا تنفدي كما ليلة البحر لا تنفدُ

ولهم في هذا شعر كثير، وقد تقابلت الألحان فكلّ يمدح الأوفق له.

بلى، من فضل الليل على النهار عناية العرب بتسمية كلّ ثلاث منه في الشهر باسم كالغُرَر[٢٥] والنُفَل[٢٦] والتُسْع[٢٧] والعُشَر[٢٨] والبيض[٢٩] والدُرَع[٣٠] والظُلَم[٣١]

أُنظر: «يتيمة الدهر ٢: ٣٦٥، تاريخ بغداد ١٣: ٧٢٧١/٢٩٦، معجم الأُدباء ١٩: ٧٨/٢١٨، الأنساب ٥: ٤٠، وفيات الأعيان ٥: ٧٦٠/٣٧٦، مرآة الجنان ٢: ٢٧٥، شذرات الذهب ٢: ٢٧٦، الأعلام ٨: ٢١».

(٢٥) الغُرَرُ: ثلاث ليال من أول كلّ شهر، وذلك لبياضها وطلوع القمر في أوّلها «لسان العرب ـ غرر ـ ٥: ١٥».

(٢٦) يقال لثلاث ليالٍ بعد الغُرَر: نُفَلٌ، لأنّ الغرر كانت الأصل وصارت زيادة النُفَل زيادة على الأصل. «لسان العرب ـ نفل ـ ١١: ٦٧٣».

(٢٧) التُسْعُ: ثلاث ليال من الشهر، وهي بعد النُفَل، لأنّ آخر ليلة منها هي التاسعة. «الصحاح ـ تسع ـ ٣: ١١٩١».

(٢٨) قال الجوهري: يقال لثلاث ليال من ليالي الشهر: عُشَرُ، وهي بعد التُسْع «الصحاح ـ عشر ـ ٢: ٧٤٧».

(٢٩) البيض: ليالي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، سمّيت بذلك لأنّ القمر يطلع فيها من أوّلها إلى آخرها. «النهاية ـ بيض ـ ١: ١٧٣».

(٣٠) الأدرع من الخيل والشاء: ما آسودَّ رأسه و آبيضَّ سائره، والأُنثى درعاء. ومنه قيل لثلاث ليال من ليال الشهر اللاتي يلين البيض دُرَعٌ، مثال صُرَد، لاسوداد أوائلها وابيضاض سائرها، على غير قياس، لأنّ قياسه دُرْعٌ بالتسكين، لأنّ واحدتها دَرْعاء. «الصحاح ـ درع ـ ٣: ١٢٠٧».

(٣١) يقال لثلاث ليال من ليالي الشهر اللاتي يلين الدُرَعَ ظَلَمٌ لإظلامها، على غير قياس، لأنّ قياسه

والحَنادِس[٣٢] والدَّآدِئ[٣٣] والمُحَاق[٣٤] فلم يعنوا بالأيام عنايتهم بالليالي.

فأمّا الليالي التي جاءت الشريعة بتفضيلها فكليلة الجمعة، وليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وهي التي قال الله جلّ وعزّ: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)[٣٥] وقال الله تعالى ذكره: (فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)[٣٦] ثمَّ قال: (سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)[٣٧].

فقال أهل التفسير: لا يعمل فيها سحر، ولا يحدث فيها شيء من شرّ، بل هي رحمة من أولها إلى آخرها[٣٨].

ومن الليالي ليلة النصف من شعبان، وجاء في الحديث: إنّ الباري جلّ ثناؤه يقول فيها: هل من مُستغفر فأغفرَ له؟ هل من مسترزقٍ فأرزقه؟ هل من مبتلى فأُعافيه؟ حتى يطلع الفجر[٣٩].

ظُلَمٌ، بالتسكين، لأنّ واحدتها ظَلْماء. «لسان العرب ـ ظلم ـ ١٢: ٣٧٨».

(٣٢) الحِنْدِسُ: الليل الشديد الظلمة، والحَنادِسُ: ثلاث ليال من الشهر سميّت بذلك لظلمتهنّ. «لسان العرب ـ حندس ـ ٦: ٥٨».

(٣٣) الدَّآدِئ: ثلاث ليال من آخر الشهر قبل ليالي المحاق، وقال أبوعمرو: الديداء والدأداء من الشهر آخره. «الصحاح ـ دأدأ ـ ١: ٤٨».

(٣٤) يقال لثلاث ليال من الشهر ثلاث مُحَاقُ، وقال الأزهري: اختلف أهل العربية في الليالي المحاق، فمنهم من جعلها الثلاث التي هي آخر الشهر وفيها السِّرارُ، وإلى هذا ذهب أبوعبيد وابن الأعرابي، ومنهم من جعلها ليلة خمس وستّ وسبع وعشرين لأنّ القمر يطلع، وهذا قول الأصمعي وابن شميل، وإليه ذهب أبوالهيثم والمبرّد والرياشي؛ قال الأزهري: وهو أصحّ القولين عندي «لسان العرب ـ محق ـ ١٠: ٣٣٩».

(٣٥) القدر ٩٧: ١.

(٣٦) الدخان ٤٤: ٣ و ٤.

(٣٧) القدر ٩٧: ٥.

(٣٨) أُنظر: «جامع البيان في تفسير القرآن ٣٠: ١٢٨، التبيان ١٠: ٣٨٦، مجمع البيان ٥: ٥٢١، تفسير القرطبي ٢٠: ١٣٤».

(٣٩) رواه ابن ماجة باختلاف يسير في سننه ١: ٤٤ باب ١٩١ ح ١٣٨٨ بسنده قال: حدّثنا الحسن بن علي الخلّال، ثنا عبدالرزّاق، أنبأنا ابن أبي سبرة، عن إبراهيم بن محمد، عن معاوية بن عبدالله بن جعفر، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.....

فهذا في الليل ولم يجئ في النهار مثله.

وروى عَمْروبن عَبْسَة[٤٠] قال: قلت: يا رسول الله، هل من ساعة هي أقرب إلى الله عزّوجلّ من أُخرى؟ قال: نعم، جوف الليل الأوسط[٤١].

ولم يقل مثل ذلك في النهار.

قال صاحب النهار:

الأُسبوع تُسمّى أيامه الجمعة والسبت إلى الخميس، وليست الليالي كذلك، بل الليالي منسوبة إليها، فيقال: ليلة الأحد، وليلة كذا، وليس المضاف كالمضاف إليه.

وبعد فالأيام النبيهة أكثر من الليالي التي عدّدت، كيوم الجمعة وهو يوم العروبة[٤٢]، ويوم المزيد.

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: اللّهمّ بارك لأُمتي في بكورها يوم سبتها ويوم خميسها[٤٣].

ولم يقل ذلك في شيء من الليالي.

---

(٤٠) في الأصل: عمروبن أبي عنسبة، تصحيف، صوابه ما اثبتناه، وهو عمرو بن عَبْسَة بن خالد بن عامر بن غاضرة بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن السلمي، من أوائل المسلمين بمكّة، ثم رجع إلى بلاده فأقام بها إلى أن هاجر بعد خيبر وقبل الفتح فشهدها، ويقال: إنّه كان أخا أبي ذرّ لأُمّه، وكان يدّعي أنّه رابع الإسلام، وسكن الشام في أواخر حياته، ويقال: إنّه مات بحمص، ويظنّ أنّ وفاته كانت في أواخر خلافة عثمان.

«أُسد الغابة ٤: ١٢٠، الإصابة ٣: ٥/٥٩٠٣، تهذيب الأسماء واللغات ٢: ١٩/٣١، تهذيب التهذيب ٨: ١٠٧/٦١، تقريب التهذيب ٢: ٦٢٩/٧٤».

(٤١) رواه الترمذي في سننه ٥: ٣٥٧٩/٥٦٩، باختلاف يسير، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١: ٣٠٩، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٤٢) قال ابن الأثير: وفي حديث الجمعة «كانت تسمّى عَرُوبة» هو اسم قديم لها، وكأنّه ليس بعربي. يقال: يوم عَرُبة، ويوم العروبة، والأفصح أن لا يدخلها الألف واللام. «النهاية ـ عرب ـ ٣: ٢٠٣».

(٤٣) رواه ابن ماجة في سننه ٢: ٢٢٣٧/٧٥٢ باختلاف يسير.

وكيوم عاشوراء وما جاء في فضله[٤٤]، ثمّ في الأيام المعلومات والمعدودات وكيوم عرفة، وكالساعة التي يُرجى فيها إجابة الدعاء من يوم الجمعة، وذلك للنّهار دون الليل.

وبعد، فالليل أكثر آفات ومحاذر، ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «خَمِّروا[٤٥] آنيتكم، وأوْكُوا[٤٦] أسقيتكم، وأجيفوا[٤٧] الأبواب، واكْفِتُوا[٤٨] صبيانكم، فإنّ للشيطان انتشاراً وَ خَطْفَةً»[٤٩]. يعني بالليل.

ونهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن جداد الليل وصِرَام الليل[٥٠]. وذلك لما يُخشى على الجادّ والصارم من نَهْس أو نَهْش[٥١][٥٢].

وتقول العرب: المِكْثَارُ حَاطِب لَيْلٍ[٥٣]. لما يُخشى عليه، كذلك المكثار ربما تَكَلَّمَ بكلمة فيها عطبه، والنهار على كلّ حال أسلم وأقلّ آفات.

قال صاحب الليل:

قد نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [عن الصلاة] في أوقات من

---

(٤٤) أُنظر: المصنّف ٤: ٢٨٥-٢٩١.

(٤٥) التخمير: التغطية «النهاية -خمر- ١: ٧٧».

(٤٦) الوكاء: الخيط الذي تشدّ به الصرّة والكيس وغيرهما، وأوكوا أسقيتكم: شدّوا رؤوسها بالوكاء، لئلّا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شيء. أُنظر: «النهاية -وكا- ٥: ٢٢٢».

(٤٧) أجيفوا الأبواب: أي ردّوها. «النهاية -جوف- ١: ٣١٧».

(٤٨) اكفتوا صبيانكم: أي ضُمّوهم إليكم. «النهاية -كفت- ٤: ١٨٤».

(٤٩) رواه البخاري في صحيحه ٤: ١٥٧، وأحمد في مسنده ٣: ٣٨٨، والترمذي في سننه ٥: ٢٨٥٧/١٤٣، باختلاف يسير.

(٥٠) الجَدِاد -بالفتح والكسر-: حِرام النخل، وهو قطع ثمرتها، يقال: جدّ الثمرة يجدّها جَدّاً. «النهاية -جدد- ١: ٢٤٤».

(٥١) يقال: نَهَسَتْهُ الحَيّةُ أو نَهَشَتْهُ: إذا لسعته «الصحاح -نهس، نهش- ٣: ٩٨٧، ١٠٢٣».

(٥٢) إلّا أنّ ابن الأثير علّل ذلك بقوله: وإنّما نهى عن ذلك لأجل المساكين حتى يحضروا في النهار فيتصدّق عليهم منه «النهاية -جدد- ١: ٢٤٤».

(٥٣) مثل سائر، وهو من كلام أكثم بن صيفي، قال أبوعبيد: وإنّما شبّهه بحاطب الليل لأنّه ربّما نهشته ←

النهار، والصلاة من أشرف العبادات، ولم يَنْهَ عن الصلاةِ في شيء من ساعات الليل، فهذي فضيلة للّيل وليست للنهار.

وبعد، فإنّ النعمة على الإخوان المتقاربي المنازل، مُتعتهم بمجالسة الليل على امتداده، وأنّه ربّما نفد الليل ولم يشعروا بنفاده، ولم يقضوا وِطْرهم من سرور الاجتماع فيه.

قالوا: ومن فضائل الليل التهجّد التي أقر[٥٤] الله جلّ وعزّ نبيّه صلّى الله عليه وسلّم فقال: (وَ مِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ)[٥٥].

ثمّ مَدَحَ صالحي عباده فقال: (وَ ٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ)[٥٦]. وقال في طبقة أرفع من هؤلاء: (كَانُوا قَلِيلاً مِنَ ٱللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)[٥٧].

ووصف جلّ ثناؤه ضروب التهجد فقال: (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ سَاجِداً وَ قَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَ يَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)[٥٨].

وأنشدني أبي[٥٩] رحمه الله:

→

الحيّة ولدغته العقرب في احتطابه ليلاً، فكذلك المكثار ربّما يتكلّم بما فيه هلاكه، يُضرب للذي يتكلّم بكل ما يهجس في خاطره.

قال الشاعر:

إحفظ لسانَك أيّها الإنسانُ ... لا يقتلنّكَ؛ إنّه ثُعبانُ

كم في المقابرِ من قتيلِ لسانِه ... كانتْ تخافُ لقاءَه الأقرانُ

«مجمع الأمثال ٢: ٣٠٤».

(٥٤) كذا في الأصل، ولعلّ الصواب: أمر.

(٥٥) الإسراء ١٧: ٧٩.

(٥٦) آل عمران ٣: ١٧.

(٥٧) الذاريات ٥١: ١٧.

(٥٨) الزمر ٣٩: ٩.

(٥٩) فارس بن زكريّا، والد المؤلف، كان فقيهاً شافعياً وعالماً بفنون العلوم، روى عنه الأئمّة ومات ببغداد سنة ٣٦٩ هـ، وقد روى عنه ولده أحمد كتاب «إصلاح المنطق» لابن السِكّيت، وروى عنه كثيراً في مختلف كتبه، وسمع عنه بقزوين.

«مقدّمة مجمل اللغة ١: ١٦ وفي ذيله: طبقات ابن الصلاح: ٧٣أ، طبقات الاسنوي ٢/٢٦٤-٢٦٥»،

←

إنّ الشتاءَ غنيمةٌ موفورةٌ للعابدينا
قِصَرُ النهارِ لِمَن يصوم وطول ليلِ القائمينا

قال أهل العلم: في الليل تنقطع الأشغال، وتَجمَّر الأذهان، ويصحّ النظر، وتؤلّف الحكم، وتدرّ الخواطر، ويتّسع مجال القلب.

والليل أضوأ في سبل الفكر، وأخفى لعمل الشرّ، وأصحّ لتلاوة الذِكْر. قال الله جلّ ثناؤه: (إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً)[٦٠].

قالوا: ومدبّرو الملك يختارونه على النهار لما في ذلك من صحّة التدبير، وتصحيح المعاني، وتقويم المباني، وإظهار الحُجج، وإيضاح النهج، وجمع المبسوط، وبسط المجموع.

ثمّ مؤلفو الكتب يختارونه على النهار لأنّ القلب بالنهار طائر، وفي الليل ساكن، وبذلك يصيبون نظم الكلام وتقريبه من الأفهام، وبتدبير الليل يعرف الخاصة للملك الحازم وتنقاد العامة له، وقديما كان يقال: الليل نهار الأديب.

وكان من حديث ذلك فيما حدّثني به أبي أنّ بعض البرامكة ولّى ابنه ولاية، فبلغه عنه إهماله للرعية، وإقباله على اللهو، فكتب إليه:

انصب نهاراً في طِلاب العُلى وٱصبرْ على تركِ لقاءِ الحبيبِ
حتّى إذا الليل دنا مقبلاً واستترتْ فيه وجوه العيوبِ
فبادر الليل بما تشتهي فإنّما الليل نهار الأديبِ
كم من فتى تحسبه ناسكاً يستقبل الليلَ بأمرٍ عجيبِ
غطّى عليه الليل أسراره فبات في خفضٍ وعيشٍ خصيبِ
ولذّة الأحمق مكشوفة يسعى بها كلّ عدوّ رقيبِ

قالوا: وممّا وصف به الليل قول القائل:

ولم أرَ مثل الليل جنّة فاتكٍ إذا هَمَّ أمضى أو غنيمة ناسكِ

← النجوم الزاهرة ٤/١٣٥».

(٦٠) المزمّل ٧٣: ٦.

وأنشدني علي بن إبراهيم[٦١] قال: أملى علينا ثَعْلَب[٦٢] أبيات بعض اللصوص، وفيها يقول:

فللليل إن واراني الليل حكمه وللشمس إن غابت عليَّ تدورُ

وقال آخر:

ولم أرَ مثل الليل أمضى لهمّة ولا مثل حدّ السيف للمرء ناهيا

ولم أرَ مثل الليل لم يعطه الرضى ذر الحاج حتى يصبح الليل ماضيا

وقال الله جلّ ثناؤه لنبيه موسى عليه السلام: (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ)[٦٣]. وقال لنبيّنا صلّى الله عليه وسلّم: (سُبْحَانَ ٱلَّذي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلى ٱلْمَسْجِدِ الأَقْصَى ٱلَّذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)[٦٤].

قالوا: وفي الليل ينجو الهارب، ويدرك الطالب، وفيه تظهر شجاعة الشجاع، وجبن الجبان.

ويُنْشَدُ لبعض الفُتّاك:

أنا ابن الخيل والليل فحلّالٌ ورحّالُ

---

(٦١) علي بن إبراهيم بن سلمة بن بحر القطّان القزويني، أبوالحسن، أديب فاضل ومحدّث حافظ، عالم بجميع العلوم والتفسير والنحو واللغة والفقه القديم، لقي المبرّد وثعلباً وابن أبي الدنيا، وسمع منه جمع كثير من القدماء، ولد سنة ٢٥٤ هـ، وتوفي سنة ٣٤٥ هـ.

«معجم الأُدباء ١٢: ٢٢٠، تذكرة الحفّاظ ٣: ٨٥٦، العبر ٢: ٧٠، طبقات المفسّرين للداودي ١: ٣٣٣/٣٨٨».

(٦٢) أحمد بن يحيى بن زيد بن سَيّار، الشيباني بالولاء، أبوالعبّاس، المعروف بثعلب، إمام الكوفيّين في النحو واللغة، كان راوية للشعر، محدّثاً مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة، ولد سنة ٢٠٠ هـ، له كتب عديدة، أُصيب في أواخر أيامه بصمم فصدمته فرس فسقط في هوّة فتوفي على الأثر في بغداد سنة ٢٩١ هجرية.

«تاريخ بغداد ٥: ٢٦٨١/٢٠٤، إنباه الرواة ١: ٨٦/١٧٣، العبر ١: ٤٢٠، شذرات الذهب ٢: ٢٠٧، وفيات الأعيان ١: ١٠٢، الأعلام ١: ٢٦٧».

(٦٣) هود ١١: ٨١.

(٦٤) الإسراء ١٧: ١.

قال صاحب النهار:

بالليل تدبّ الهوام، وتثور السباع، وتنتشر الخرّاب، وتكبس الأحياء، وتشن الغارات، ولذلك قيل: الليلُ أخْفَى للوَيْلِ[٦٥].

ولذلك استعاذوا بالله عزّوجلّ من الأيهمين، وهما السَيْل والليل. ويقال: الأعميان.

وممّا يذم به الليل تشبيه الله عزّوجلّ وجوه أعدائه به فقال: (كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ ٱللَّيْلِ مُظْلِماً)[٦٦].

وكان الحسن[٦٧] يقول: ما خلق الله خلقاً أشدّ سواداً من الليل. وقال الله عزّوجلّ: (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)[٦٨] وهو الليل إذا أظلم. قال: فهذا هذا.

ثمّ من الحجّة في فضل النهار على الليل افتخار العرب بالأيام دون الليالي، فقالوا في مغاراتهم وحروبهم: يوم خَزَازَى، ويوم ذي قار، ويوم حف[٦٩]، ويوم كذا ويوم كذا، ولم يذكروا مثل ذلك في الليالي.

قال عمرو بن كلثوم[٧٠]:

---

(٦٥) مثل سائر، بمعنى إفعل ما تريد ليلاً فإنّه أستر لسرّك، أول من قاله سارية بن عويمر بن عدي العُقيلي، وسرد الميداني قصّة المثل كاملة. أُنظر: «مجمع الأمثال ٢: ٣٣٤١/١٩٣».

(٦٦) يونس ١٠: ٢٧.

(٦٧) هو الحسن بن يسار البصري، أبوسعيد، تابعي، كان إمام أهل البصرة، وأحد العلماء الفقهاء الفصحاء، ولد بالمدينة سنة ٢١ هـ، وتوفي بالبصرة سنة ١١٠ هـ، أخباره كثيرة، وله كلمات سائرة. «الطبقات الكبرى ٧: ١٥٦، حلية الأولياء ٢: ١٣١/١٧٠، وفيات الأعيان ٢: ٦٩/١٥٦، تهذيب التهذيب ٢: ٢٣١/٤٨٨، ميزان الاعتدال ١: ٥٢٧/١٩٦٨، العبر ١: ١٠٣، شذرات الذهب ١: ١٣٦، الأعلام ٢: ٢٢٦».

(٦٨) الفلق ١١٣: ٣.

(٦٩) كذا.

(٧٠) عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب، من بني تغلب، أبو الأسود، شاعر جاهلي من الطبقة الأُولى، ولد ←

وأيّـــامٍ لـــنـــا غُـرٍّ طِوَال عَـصَـيْـنَا المَلْكَ فيها أنْ نَـدِينَا

ولم يقل في الليالي ذلك، بل يذكرون الليل عند خلوّهم إلى الشهوات ولذات النفوس بالأشعار اللينة.

ومن استثقالهم الليل وبغضهم له قوله:

آلـيـلتـنـا بـذي حُـسَـم أنـيـري إذا أنـتِ انقَـضَيتِ فـلا تحوري

قال صاحب الليل:

قد تقدّم القول في الليل، وأنّ ذوي الرأي يبيتون فيه ما يرومونه.

وبعد فإنّ أحمدبن علي النقاد[٧١]، حدّثني عن أبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحَرْبي[٧٢] قال: كان شعراء الجاهلية وغير شعرائهم إذا جاءهم الأمر بغتة نسبوا ذلك إلى الليل، فكان من حديث الصحيفة التي كَتَبَتْهَا قريش على

في شمالي جزيرة العرب في بلاد ربيعة، كان من الفتّاك الشجعان وهو الذي قتل الملك عمروبن هند، وهو من أصحاب المعلّقات، والبيت المذكور أعلاه من معلّقته التي مطلعها:

ألا هُبّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينا ولا تُبقي خُمورَ الأنْدَرِينا

ساد قومه وهو فتى، وعمّر طويلاً، مات في الجزيرة الفراتية.

«الأغاني ١١: ٥٢، خزانة الأدب ١: ٥١٩، الأعلام ٥: ٨٤».

(٧١) من مشايخ ابن فارس، روى عنه في كتابه «الصاحبي» قال: «وسمعت أبابكر أحمدبن علي بن إسماعيل الناقد» وكذلك في «مجمل اللغة» مادّة (بكر)، قال: «وأخبرني أحمدبن علي، قال: حدّثنا أبو إسحاق الحربي، قال: حدّثنا ابن عائشة، عن أبيه، عن جدّه، قال: كانت ضرباتُ علي بن أبي طالب عليه السلام أبكاراً، كان إذا اعتلى قَدّ، وإذا اعترض قَطّ».

أُنظر: «مجمل اللغة ١: ١٧، ١٣٣».

(٧٢) إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشير بن عبدالله بن ديسم، أبو إسحاق الحربي، عالم فاضل لغوي محدّث، كان إماماً في العلم ورأساً في الزهد، عارفاً بالفقه بصيراً بالأحكام حافظاً للحديث قيّماً بالأدب جمّاعاً للّغة، صنّف كتباً كثيرة منها «غريب الحديث»، ولد سنة ١٩٨ وتوفّي في بغداد سنة ٢٨٥ هـ.

«تاريخ بغداد ٦: ٢٧، الأنساب ٤: ١٠٠، معجم الأُدباء ١: ١١٢، معجم البلدان ٢: ٢٣٧، فوات الوفيات ١: ٢/١٤، تذكرة الحفّاظ ٢: ٥٨٤، بغية الوعاة ١: ٨١٥/٤٠٨، شذرات الذهب ٢: ١٩٠، مرآة الجنان ٢: ٢٠٩، الكنى والألقاب ٢: ١٥٧».

بني هاشم في هجرانهم إيّاهم وتباعدهم عنهم، كلّ ذلك خلافاً على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فمضى ناس من ساداتهم إلى ناس آخرين وأظهروا ندماً على ما كان منهم في شأن الصحيفة، وكان منهم أبو البَخْتَري العاص بن هشام والمُطْعِم بن عَدِيّ وزهير بن أبي أُميّة وزمعة بن الأسود وغيرهم، فنقضوا الصحيفة وقالوا: نحن براء ممّا في هذه الصحيفة. فبلغ ذلك أبوجهل فقال: هذا أمرٌ خَفِيَ بلَيْل.

وأمّا ما قال الشعراء في مثل ذلك فقول الأعشى[٧٣]:

رَحَلَتْ سُمَيّة غُدوَةً أجمالَها ... غَضْبَى عَلَيْكَ فَمَا تقول بَدالَها

هذا النَهارُ بَدَا لَها مِنْ هَمّهَا ... مَا بَالُهَا بِاللَيْلِ زَالَ زَوَالُهَا

يقول: إنّ ارتحالها كان من همّها بالليل ثمّ ارتحلت نهاراً.

وقال الشَّمّاخ[٧٤]:

سَتَرجِع نَدْمَى خسة الحظ عندنا[٧٥] ... كما قطعتْ مِنّا بِلَيْلٍ وصالَها

وقال رجل من كلب:

ظَعَنوا بليلٍ واستقرَّت غيرهم ... والليل كان إلى النهار رسولا

ما للنهار إليَّ ذنب فاعلموا ... والليل هَيّج لي البكاء طويلا

---

(٧٣) ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة والوائلي، أبوبصير المعروف بأعشى قيس، ويقال له أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير، من شعراء الطبقة الأُولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلّقات، عاش عمراً طويلاً، وأدرك الإسلام ولم يسلم، ولقّب بالأعشى لضعف بصره، وعمي في أواخر حياته، مولده ووفاته في قرية «منفدحة» باليمامة قرب مدينة الرياض، وفيها داره وبها قبره.

«الأغاني ٩: ١٠٨، خزانة الأدب ١: ٨٤، الأعلام ٧: ٣٤١».

(٧٤) الشمّاخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وهو من طبقة لبيد والنابغة، وكان أرجز الناس على البديهة، توفّي في غزوة موقان، وأخباره كثيرة. قال البغدادي وآخرون: اسمه معقل بن ضرار، والشماخ لقبه.

«الإصابة ٢: ٣٩١٨/١٥٤، الأغاني ٩: ١٥٨، خزانة الأدب ١: ٥٢٦، الأعلام ٣: ١٧٥».

(٧٥) في الأغاني ٩: ١٦٤:

«سترجِع غَضْبَى رَثَّةَ الحال عندنا»، وفي الخزانة: «سترجع غضبى نزرة الحظّ عندنا».

فلأهجرنَّ الدهر ليليَ كلّه ولأجعلنَّ لي النهار خليلا

وقال عنترة[٧٦]:

إنْ كُنتِ أزْمَعتِ الفراق فإنّما زُمَّت رِكَابُكُمُ بليلٍ مُظْلِمِ

يريد أنكم دبّرتم ذلك ليلاً.

فأمّا العرب فإنّهم سوّوا بين الليل والنهار في التسمية فسمّوها وقالوا: الجَدِيدانِ والأَجَدَّانِ[٧٧] والفَتَيانِ والمهرمان والمَلَوانِ.

أنشدني أبوبكر محمدبن أحمد[٧٨]، قال: أنشدني أبوبكر بن دريد في القصيدة التي يقول، فيها:

إنَّ الجديدين اذا ما استوليا على جديدٍ أدنياه للبلى

ولبعض أهل العصر:

قالوا هويتَ فقلتُ قولةَ صادقٍ أوْدَى بغضّ شبابي البرمان

ذَهَبَ الفَتَاء وبانَ منّي أكْثَري لمَّا تَعَاور جسمي الفَتَيانِ

ما إن تَملّيت الشباب وطيبه حتّى أشابَ ذوائبي المَلَوانِ

قال الشيخ أبوالحسين أحمدبن فارس: هذا ما سنحَ وبرحَ في الوقت، وكنتُ أمليتُ كتاباً سَمّيته كتاب «السنة» وفيه طرف من علم الشريعة، وبابات من اللغة، فلذلك لم أعدّها هاهنا، والله الموفق بمنّه وكرمه آمين.

---

(٧٦) عنترةبن شدّادبن عمروبن معاويةبن قراد العبسي، أشهر فرسان العرب في الجاهلية، ومن شعراء الطبقة الأُولى، ومن أصحاب المعلقات، من أهل نجد، أُمّه حبشية اسمها زبيبة، سرى إليه السواد منها، عاش طويلاً وقتله الأسد الرهيص أو جبّاربن عمرو الطائي.

«الأغاني ٨: ٢٣٧، خزانة الأدب ١: ٦٢، الأعلام ٥: ٩٢».

(٧٧) قال ابن‌منظور في اللسان ٣: ١١١: «الأجَدّان والجديدان: الليل والنهار، وذلك لأنّهما لا يبليان أبداً».

(٧٨) الظاهر هو أحمدبن محمدبن إسحاقبن إبراهيم الدينوري، مولى جعفربن أبي‌طالب الهاشمي، راوي سنن النسائي، توفّي سنة ٣٦٤ هـ، وقد روى عنه ابن‌فارس في مقاييس اللغة وسمّاه أبابكر السُنّي.

«تاريخ بغداد ٨: ٤١٠، تذكرة الحفّاظ: ٩٣٩، مقدّمة مجمل اللغة: ١٦».

وكان الفراغ من نسخ هذا الكتاب في الليلة التي يُسْفر صباحها عن يوم الأحد المبارك ثاني شهر ذي الحجة الحرام ختام سنة ستة وتسعين وتسعمائة على يد الفقير علي بن علي الطرخي المالكي عفا الله عنه.

* * *

ووقع الفراغ من نسخه يوم الثلاثاء خامس صفر سنة ١٤٠٨ وقد نسخته في جلستين في مكتبة ملك العامة في طهران على نسخة فيها بآخر المجموعة رقم ٨٥٢، وأنا العبد عبدالعزيز الطباطبائي غفرالله له ولوالديه.

* * *